تقـــــديـــم

تعتبر رحلة الرحالة العثماني أوليا جلبى (توفى عام ١٠٩٥هـ/ ١٦٨٤م) نموذجا فريدا غير مسبوق فى تاريخ الثقافة الإسلامية. إن فوائدها كثيرة خاصة فى وصف البلدان، لقد تفوق أوليا جلبي الذي جاب ٣٣ دولة من الدول القائمة آنذاك فى ثلاث قارات: أوربا، وأسيا، وإفريقيا. وتحتاج هذه الدول معرفة هذه الرحلة لتكون أساسا فى تاريخها. فقد اهتم أوليا جلبى فى رحلته بوصف النظام الإدارى فى كل مكان ذهب إليه بدقة وتفصيل وقدم لنا معلومات عن مالية كل بلد يذهب إليه، وأخلاق أهل البلد ومدى قربهم أو بعدهم عن التدين. وصف المساجد بدقة وكذلك الكنائس والأديرة والمعابد اليهودية بإحصائيات دقيقة مع إيراد تواريخها. هذه الإحصائيات التى قدمها لأوليا جلبى تشد الانتباه وتخدم علماء الاجتماع وعلماء السكان أيضا. كما تعد رحلة أوليا جلبي مصدار هاما لدراسة الجوانب التاريخية والحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر العثمانية يعتمد عليها كل من أراد دراسة مصر فى القرن السابع عشر.

حدثني أستاذي بكير كوتوك اوغلو الأستاذ بجامعة استانبول، قبل ما يزيد على خمس وعشرين سنة، أنه كون لجنة لتحقيق رحلة أوليا جلبي، ففيها نقص كبير، وتواريخ متروكة، وفراغات، إذ مات الرحالة قبل أن يكتبها. وطلب بكير بك مني أن أشترك فى هذه اللجنة لتحقيق الجزء الخاص بمصر فى الرحلة. وحدثته عن ضرورة ترجمتها إلى العربية فرأى أن تحقق فى لغتها الأصلية وتستكمل علميا ثم يُنظر في أمر ترجمتها. ولم يتم مشروع لجنة التحقيق هذه.

ولأن ترجمة الرحلة إلى اللغة العربية ضرورة، فقد توفر عليها، أسماء كبارنا، ذلك الجيل القيم: محمد على عوني وقيل إنه ترجمها وسلمها إلى الدكتور عبد الوهاب عزام

ليراجعها وراجع بعضها وترك أغلبها ليراجها الدكتور أحمد السعيد وعدّل هذا فيها وبدّل فوجد نفسه فى النهاية أمام ترجمة جديدة من صنعه ومن صياغته. وقيل إنه لم يسلمها لوزارة الثقافة المصرية، بل عهد بها إلى أحد أبنائه الأساتذة. كما قام كاتب هذا البحث بتكوين لجنة من الأساتذة الشبان المتخصصين فى اللغة التركية ليترجموا هذه الرحلة تحت إشرافي وكنت وقتها رئيسا لوحدة البحوث بمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس بالقاهرة عام ١٩٨٢م، لكن لم يتم أحد من هذه اللجنة عملها إلا الدكتورة ماجدة مخلوف، وكانت وقتها مدرسا مساعدا.

وعندما تولينا - أي كاتب هذه السطور - رياسة المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي والبلقان سنة ١٩٩٠م، عهدنا إلى أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصرى (عليه رحمة الله) بترجمة هذا العمل - أي رحلة أوليا جلبي، على ما في أصله العثماني من نقص، وعهدنا إلى مجموعة من الباحثين الشبان بمساعدته. وأنفق المركز على هذه الترجمة الشئ الكثير. وقد تطوعت الدكتور ماجدة مخلوف بمراجعتها وإكمال نواقصها. ولم نستطع نشر هذه الترجمة فى حينها لأسباب متعددة رغم أنه لم يكن لنا أى مطالب مادية فيها، إلى أن اضطلعت دار الآفاق العربية بنشر هذه النسخة الورقية من الترجمة. على كل حال، يظل أوليا جلبي، رغم كل هذا، قمة أدب الرحلات عند المسلمين.

أوليا جلبي: حياته ومسار رحلته

تعتمد معرفتنا لحياة أوليا جلبي. على ما دوّنه في كتابه الضخم ذي المجلدات العشر الذي سجل فيه رحلته.

غير معروف لنا اسمه الكامل والحقيقي، وربما يكون اسم أوليا جلبى نسبة إلى معلمه أوليا محمد أفندي. ارتحل أوليا جلبي داخل كل البلاد العثمانية وخارجها فى رحلة استغرقت حوالى الأربعين عاما. وقد سجل رحلته هذه والتي تعتبر نموذجا فريدًا غير مسبوق في تاريخ الثقافة التركية ومازالت هذه الرحلة هامة حتى يومنا هذا.

ومن خلال ما جاء فى هذه الرحلة من معلومات، نقول أن أوليا جلبي ولد في العاشر من المحرم عام ١٠٢٠هـ- الخامس والعشرين م مارس عام ١٦١١، في حي (اون قايا) أحد أحياء استانبول. كان والده- كما ذكر في بعض المواضع من رحلته - يدعي درويش محمد أغا، ابن درويش محمد ظلي أفندي، وكان هذا الأخير صائغ ذهب. قيومجي) فى القصر السلطاني. وقد مال أوليا جلبي إلى المبالغة كثيرا في ما ذكره من أخبار في ثنايا رحلته. ومن هذه (المبالغات) أنه كان يوجد في بيوتهم عند مولده حوالي سبعين من العلماء والشيوخ، وقد تمكن بمددهم المعنوي أن ينجو بيسر وسهولة من كل ما صادفه في حياته من آلام وصعاب. وقد دون هذا كله ليذكر أن والده كان رجلا معروفا، وما يؤكد هذا التصور، ما ذكره من أن والده اشترك فى فتح جزيرة قبرص، وأنه قد مفاتيح ماغوسا. كما أنه صنع بنفسه ميزاب الكعبة في زمن السلطان أحمد الأول، وحمله إلى الحجاز باعتباره أمينا للصرة. واشترك في أعمال زخرفة باب ونوافذ مسجد السلطان أحمد، وأنه حظى بتقدير السلطان أحمد الأول لهذا السبب فرفع مكانته حتى أصبح (مصاحبا للسلطان). أما ماذكره أوليا جلبي عن أجداده، فلايعدو أن يكون معلومات غير منتظمة. ويتصل نسب عائلته بأبناء كرميان، ويذكر أنه ينحدر من نسل الشيخ أحمد يسوي. وأن أحد أجداده وكان يدعي ياووز أرْ، كان بيرقدار السلطان الفاتح. وأن ياووز أرْ هذا قد ابتني من مال الغزو مائة دكان أوقفها كلها، وكذلك البيت الذي ولد فيه أوليا جلبي.

ذكر أوليا جلبي أن أجداده عاشوا في حي زره كان في كوتاهية. ثم جاءوا بعد الفتح إلى استانبول واستقروا فيها. وكانت عائلته تمتلك - علاوة على البيوت التي تمتلكها في كوتايهة-، منزلا في حي اينه لك، وآخر في بورصه، وفي مغنيسيا، ومزرعة في صنديقا. وبعد استقرار عائلته في استانبول، امتلكت بيتين ودكانا في (أون قابان). وفي مدار حديث أوليا جلبي عن هذه الممتلكات، يذكر أن له حديقة في قاضي كوي. أما أمه فكانت من الأباظه (الأبخار)، وذكر أنه تربطه صلة قرابة من ناحية أمه بكل من ملك أحمد باشا، ودفتردار زاده محمد، وإبشير مصطفى باشا. وأن له أخ يدعى

محمود، وأخت اسمها إينال، وقد تزوجت أختـه هذه من الياس باشا الباليكسرى الذي تمرد في زمن السلطان مراد الرابع.

تلقي أوليا جلبي تعليما جيدا، وواظـب على تلقي العلم من خلال المدرسة لمدة سبع سنوات وذالك في مدرسـة شيخ الإسلام حامد أفندي. وانكب على حـفظ القرآن على يد أستاذه أوليا محمد أفندي. كما تعلـم فن الخط على يد والده، ثم انتسب إلى القصر وواصل تعليمه داخل الأندرون. كما تعلم الموسـيقى بسبب جمال صوته. واستعان في هذا بدرويش عمر أفنـدى واستفاد منه. وبعد فترة، قدّمه إبراهيـم أفندى الروزنامجي، والخطاط حسن بـاشا، إلى السلطان مراد الـرابع، وفي هذه المقابلة رأى ولـلمرة الأولى «أمير كونـه خان». وصار أوليا جلـبى المسئول عن الكـيلار الخاص بأمر من الـسلطان. وهناك أتم تعليمه وتـلقى دروسا فى الخط والموسيقى والنحو والتـجويد، وغير ذلك من المعارف.

وحسب قبـول أوليا جلبى نفـسه، أنه كان كثير التـواجد في مجلس السـلطان مراد الرابع، وكان يقص عليه اللطائف. وكان السلطان يستدعيه لمجلسه إذا ما اعتراه الضيق. ولاشك أن الجو الـعام داخل القصـر، لعب دورا هاما وإلى حـد كبير في زيـادة قدرته الأدبية، ومعارفه، وقدرته على الملاحظة. وكان أوليـا جلبي يطمح إلى أن يقضي حياته في التعلم، ولهذا ترك عمله في الأندرون، بعد أربع سنوات فقط قضاها ضمن السباهية براتب قدره أربعون أقجه.

واعتملت لـدى أوليا جلبي الرغبة فـي الرحلة للمرة الأولى، بسـبب أحاديث والده التى كان يتـكلم فيها عن عمـله لدى الباشوات منذ زمـن القانوني حتى زمن الـسلطان إبراهيم ووقائع الرحلات المختلفة التـي استمع إليها من أصدقاء والده. ولاشك أن هذه الحكايات حركت لدى أوليـا جلبى الرغبة فى السفر. ويذكر أوليـا جلبي في كتابه، أن قيامه بهذه الرحلات، كان بسبب رؤيا رآها في منامه، في ليلة عاشوراء من شهر المحرم سنـة ١٠٤٠هـ (١٩ أغسطـس ١٦٣٠) وفيها رأى الـرسول عليـه الصلاة والسـلام في جماعة في مسجد آخـي جلبي بجوار يميش اسكله سي في استانـبول، فاعتراه الانفعال

وهم يقبل يد رسول الله، وبدلا من أن يقول الشفاعة يارسول الله، قال من فرط الانفعال «السياحة يارسول الله» فتبسم له النبي وبشره بالشفاعة والسياحة والزيارة (الحج) ودعا له الصحابة في هذه الجماعة، وتمني له سعد بن أبي وقاص أن يكتب مايراه. وقال له الشيخ عبد الله دده شيخ «المولوي خانه» في حي «قاسم باشا»، في تفسير هذه الرؤيا، «اتبع نصيحة سعد بن أبي وقاص، وابدأ بالكتابة عن استانبول». بناء على ذلك قرر التجول في المدينة التي ولد وعاش فيها أولا، وكتابة كل مايراه. تجول أوليا جلبي في استانبول وطاف بأحيائها واحدا تلو الآخر، وجالس الناس في المجالس على اختلافها، وفى المقاهى والحانات، وجمع المعلومات عنها. وكانت أول رحلة له خارج استانبول في عام ١٦٤٠، وكانت إلى بورصه. وقد ذهب إليها بغير إذن من والده، ولدى عودته منها، أذن له والده بالرحلة مرة أخرى، وأوصاه بكتابتها. وربما تمكن أولياء جلبى أثناء تجواله فى استانبول، من القيام برحلات إلى كوتاهية ومغنيسيا، وإزميد، لكنها كانت رحلات قصيرة بسبب ارتباطه بعائلته.

كانت أول رحلة لأوليا جلبي إلى بلاد بعيدة، ظفر بها من خلال وجوده مع كته نجي عمر باشا والي طرا بزون. فقد ذهب أوليا في معية الباشا إلى هناك عن طريق البحر، ومنها توجه إلى عنابه. وأثناء وجوده هناك، اشترك في الحملة التى قادها حسين باشا لاسترداد قلعة آزاق سنة ١٦٤١م. ولم تسفر الحملة عن شئ فتوجه إلى القرم وحل ضيفا على بهادر خان. وقطع الشتاء فى باغجه سراي. وفي الربيع. اشترك في فتح الآزاق، ثم رجع من القرم إلى استانبول عن طريق البحر. وتعرضت المركب التي يركبها لعاصفة قوية وكادت أن تغرق. وبعد رجوعه إلى استانبول توقف عن الرحلات لمدة أربع سنوات وربما كان هذا بسبب الخوف. ثم خرج للرحلة مرة أخرى في عام ١٦٤٥. وفي هذه المرة اشترك في الحملة على كريت مع يوسف باشا. وشاهد فتح قلعة قانيه، ثم عادة إلي استانبول. وفى العام التالي رافق دفتردار زاده محمد باشا إلى أرضروم لدى تعيينه أمير أمراء عليها، وصاحبه أوليا باعتباره مؤذن ومصاحب له. وصار ضمن رجاله. وأثناء الرحلة زار بعض مدن الأناضول، واشترك في حملته على شوشك،

ورافق رسول الصفويين لدى عودته إلى تبريز. وتجول في اذربيجان وكردستان، وطوَّف بأنحاء باكو وتفليس وروان وكوموش خانه وطورطوف، وشارك في الحملات على كردستان. ثم نُقل دفتر زاده محمد أفندي الذى أقام علاقة مع الباشوات المتمردين في تلك القري، من عمله هذا وعُيّن في قارص، لكنه لم يهذب إلى عمله الجديد، وعندما خرج للعودة إلى استانبول، كلف أوليا جلبي بنقل رسائله أثناء قيام أوليا جلبي بوظيفته هذه، تعرف برؤساء الجلالية مثل قره حيدر أوغلو ممد وقاطرجي أوغلو محمد. كما عاصر تمرد واردار على باشا، ويفسح فى كتابه مكانا للحديث عن هزيمته على يد بشير مصطفى باشا، ومقتله. (سياحتنامه ج٢، ص ٤٤٨-٤٥٢).

ثم ذهب أوليا جلبي في شهر أغسطس من عام ١٦٤٨ إلى الشام بصحبة مرتضى باشا لدى تعيينه بكلر بك هناك، ومن هناك تمكن نقل مرتضى باشا من الشام إلى سيواس، ذهب معه أوليا جلبي إلى سيواس، وتحايل بوسائل شتى حتى تمكن من السياحة في مدن وسط وشرق الأناضول، ثم رجع إلى استانبول سنة ١٦٥٠.

وفى العام نفسه، وأثناء وجوده في استانبول اعتلى ملك محمد باشا منصب الصدارة وكانت تربط بينه وبين أوليا جلبي صلة قرابة ومعرفة وطيدة، فكان ذلك واحدة من أهم نقاط التحول في حياة أوليا جلبي. فصار واحدا من أقرب الرجال إلى الصدر الأعظم. لم يتردد في أن يسجل صراحة الوجه الآخر للأحداث التي شاهدها من خلال موقعه هذا. وسجل في كتابه أدوارهم في التمردات والمظالم التي وقعت. وكان قيام ملك محمد باشا بسك عملة مغشوشة للخروج من الأزمة المالية، سببا في تمرد أصحاب الحرف بتحريض أغوات الانكشارية، وبناء عليه تم عزله من الصدارة، وتم تعيينه بكلر بك في أوزي، مما أتاح السبيل أمام أوليا جلبي للسياحة مرة أخرى. فذهب برفقة ملك باشا إلى هناك. وخلال ذلك شاهد روسجق وسلتره، وبابا داغي. واشترك في أعمال وكتابة وتحرير القرى والقصبات التى هناك. كما كان برفقة ملك أحمد باشا أثناء وتوليه منصب بكلر بك الروملي. ولكنه رجع إلى استانبول في يوليو ١٦٥٣ بعد عزل الباشا. وظل في استانبول لفترة طويلة. وذات مرة حمل رسالة إلى ابشير مصطفي باشا في

قونيه. ثم عاد أوليا جلبي ليطوف مرة ثانية في دروب الأناضول بعد تكليف ملك أحمد باشا بمنصب بكلر بك، وان. وأثناء هذه الرحلة تمكن من التجول في كثير من الأماكن في شرق الأناضول كما تجول في أنحاء إيران وبغداد من خلال مهام مختلفة قام بها. عقب هذا، ذهب مع ملك أحمد باشا إل أورفي مرة أخرى بمناسبة تكليفه بمنصب بكلر بك. وأثناء وجوده هناك، اشترك في الحملة المتجهة إلى راقوجزى، كما اشترك أيضا في الحملات التي شنها محمد كيراي الرابع، خان القرم ضد الروس والقازاق.

وبعد أن أقام فترة في استانبول، خرج في شهر ديسمبر من عام ١٦٥٧، وتجول في بوصره وجناق قلعه وغاليبولي. وفي عام ١٦٥٩، أتيحت له الفرصة للسياحة مرة أخرى، وفي هذه المرة انضم إلى القافلة المتجهة إلى إقليم ستيفانيتزا من البغدان. واشترك في هجمات متعددة مع فرسان القرم وفي التحركات التي تمت لتأديب ميهنيان الثالث أمير الأفلاق المتمرد. وعقب عودته إلى أدرنه مباشرة، اشترك في حملة كوسه على باشا إلى واراد. وبعد هذا التحق مرة أخرى بملك أحمد باشا أمير أمراء البوسنة، وطاف بولاية البوسنة. واشترك في كل التحركات العسكرية التي تمت في هذا الإقليم. ثم ذهب إلى صوفيا أيضا مع ملك أحمد باشا، وتجول في الروملي بسبب تكليفه بمهمة جمع الضرائب. وفى هذه الفترة، اشترك في حملة كوسه على باشا على الإردل في صحراء طمشوار. (١٦٦١). وهناك، جال في الإردل مع جنود القرم. ثم ذهب إلى بلجراد لقضاء فصل الشتاء وعقب ذلك كُلف بتحصيل المال فى الأرناؤوط (ألبانيا) عقب عودته إلى استانبول، كان أوليا جلبي يتحين الفرص للقيام بسياحة جديدة فاشترك في حملة فاضل أحمد باشا على النمسا فى عام ١٦٦٣. واشترك في كل مراحل هذه الحملة. وعقب فتح قلعة أويوار، - وحسب روايته - تجول في ديار كثيرة من بوهيميا حتى بلغ السويد وهولندا. ولدى عودته إلى بلغراد، حمل رسالة إلى سوخ راب محمد باشا في الهرسك. وهناك اشترك في التحركات التي جرت على طول حدود البندقية. وبعد ذلك رجع إلى المجر، وحضر معركة رَعب. وقد قدم معلومات مستفيضة عن هذه المعركة. (سياحتنامه، ج٧، ص ٨١-١٢٠) وفي عام ١٦٦٤، ذهب إلى فيينا فى

صحبة السفير قره محمد باشا وطاف معه على القلاع التى تم فتحها حديثا وذلك عقب معاهدة وارسوار، وكتب أوليا جلبي أنه التقي في فيينا بالإمبراطور ليوبويد الأول، والقائد مونته جوجوللي، وأنه ذهب إلى الدانمارك وهولند (١) وبراند نبرج بإذن من الإمبراطور، وقال أنه طاف ببلاد كثيرة، لكن هذا أمر مشكوك في صحته.

وبعد فترة ذهب أوليا إلى القوقاز سالكا طريق القرم، فوصل حتى شواطئ الفولجا، وقال أنه بعد أن طاف بهذه الأماكن انضم إلى قافلة ورجع إلى قلعة آزاق، ثم ذهب من كفه إلى باغجه سراى، واشترك في بعض الحملات التي قام بها عادل كيراي. وفي مايو ١٦٦٨، رجع أوليا إلى استانبول. وفى شهر ديسمبر من العام نفسه طاف بمدن الروملي مثل أدرنه وكومولجنه وسلانيك. ثم ركب البحر من الأناضول إلى كريت وفى تلك الأثناء كانت قلعة قنديه في كريت مازالت تحت الحصار، فشاهد بنفسه كل صفحات هذه الحصار، وسجل أحداثه في رحلته، وكتب «فتحنامه قنديه» وتجول أوليا في كريت وقدم معلومات مفصلة عنها. ثم رجع من هناك إلى المورة واشترك في التنكيل بمتمردي «فانبوت ثم ذهب إلى بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) وطارق بها، ثم رجع إلى استانبول في ديسمبر عام ١٦٧٠. ظل أوليا في استنابول بضع شهور، ثم قرر أن يؤدي فريضة الحج الذي كان يتحرق شوقا إليه منذ أمد، فقرر الارتحال مرة أخرى. وارتبط خروجه للرحلة هذه المرة برؤيا رآها في ليلة القدر عقب عودته من زيارة قبر أبو أيوب الأنصاري، فقد رأي في منامه، والده، وشيخه محمد أفندي وأوصياه بالحج فخرج من استانبول لهذه الغاية برفقه صديقه سائلي جلبي، وثلاثة من الرفاق وسبعة من الخدم، وذلك في مايو من سنة ١٦٧١. وكانت هذه الرحلة هي الأولى التي يرتحل فيها في رحلة طويلة بدون أن يلتحق بقافلة، إنما خرج مع مجموعة محدودة من الرجال. لهذا اختلف مساره في الرحلة عن ذى قبل. فقد مر ببورصه وكوتاهية وافيون ومنها إلى إزمير، ومن هناك ذهب إلى جزر صاقيز وسيسام، ثم رجع ثانية إلى غرب الأناضول، فطاف بسواحل آيدين ومنتشا وجزر استان كوي ورودس، وكتب معلومات عنها استفاد فيها من دفتر خانة رودس. (سياحتنامه، ج٩، ص ٢٥٦.) ثم انتقل أوليا من رودس إلى الأناضول،

وزار مدن جنوب الأناضول التي لم يتمكن من زيارتها من قبل، وتجول في اطنه ومرعش وعينتاب وكليس ومنها ذهب إلى سوريا. وفي الشام التحق بقافلة أمير الأمراء حسين باشا وتوجه إلى الحج. وقد سجل في كتابه، على حده، مسار رحلته للحج. وبعد أدائه للفريضة، ذهب إلى مصر. وسنحت له الفرصة وهو في مصر ليطوف بالمنطقة كلها فذهب إلى السودان والحبشة. ولعله خص لهذه الديار الجزء العاشر والأخير من رحلته، والذى كتبه فى مصر. ونتبين منه أنه قضى فى هذه المنطقة مدة تربو على عشر سنوات، وذكر أنه أثناء إقامته في مصر، انعقدت الصداقة بينه وبين الأمير أوبك بك، وقد احتوى الجزء العاشر محصلة هذا. لكن النسخ التي كتبها من هذا الجزء انتقلت إلى استانبول بعد إهدائها إلى الحاج بشير أغا، أغا البنات المشهور في زمن السلطان محمود الأول. ثم انتهي الجزءالعاشر من رحلة أوليا جلبي بدون أن يكتمل، لهذا فإن التصور هو وفاة أوليا جلبي قبل أن يضع نهاية كتابه، وليست هناك معلومات مؤكدة عن مكان أو تاريخ وفاته. وقد ذكر جاويد بايصون أنه بناء على المعلومات الواردة في نهايات الجزء العاشر من الرحلة، تكون وفاة أوليا جلبي في حوالي سنة ١٠٩٣-١٦٨٢م (دائر المعارف الإسلامية، ج٤، ص ٤٠٦). لكن هذه المعلومة تم تصحيها بعد ذلك حيث ومحتمل أنه كان على قيد الحياة عام ١٩٠٥هـ-١٦٨٤م، وأنه أدرك حصار فيينا للمرة الثانية. كما أن هناك أقوال بأن وفاته كانت بعد عودته من مصر إلى استانبول. ويقال أن قبره موجود في مدافن أسرته بجوار قبر (ميت زاده).

ثم يتزوج أوليا جلبي. ونتبين من كتابه أنه كان ماهرا في الفروسية، ولعب الجريد، وكان دؤوبا نشيطا، عذب الصحبة، له في مجالسه لطائف يتوق الجالسون إلى سماعها، ورغم معرفته الجيدة برجال الدولة في عصره، إلا أنه لم يحرص على المناصب ولم يسع إليها. وأوقف حياته كلها على السياحة. وكان يجد في الوظائف التي شغلها كأن ينقل الرسائل أو يقوم بتحرير (=كتابة) القرى، ويجمع الضرائب عونا له في القيام بهذه الرحلات، وكان في بعض الأوقات ينضم إلى موكب أحد السفراء ليرتحل ويجد في هذا فرصة للقيام برحلة مأمونه. وكان ثراء عائلته يؤمن له نفقات رحلاته الطويلة، فكان

يأخذ معه خدامه وعبيده بل وأصدقاءه. وكانت العطايا التي يحصل عليها مقابل أدائه بعض الخدمات، والأموال التي تتوفر له من بيع غنائم الحملات التي اشترك فيها كل هذا كان يوفر له مصادر إضافية للمال. كما أن انضمامه إلى بعض الهيئات الرسمية كان يعفيه من نفقات بعض الرحلات.

ومثّل ملك أحمد باشا دورا هاما في رحلات أوليا جلبي، سواء أثناء توليه منصب الصدارة أو أثناء شغله وظيفة أمير الأمراء في أوزى والبوسنة والروملي ووان وديار بكر، حيث أن أوليا جلبي لم يفارقه في أي منها. وبذلك تمكن من التجول في مناطق كثيرة من الأناضول والروملي. حتي أنهم وصفوه بلقب «المنسوب إلى ملك أحمد باشا». واكتسب أوليا جلبي من رحلته التي قاربت نصف قرن من الزمان، تجارب ومعارف لانهاية لها. فكان شاعرا وخطاطا، ومزخرفا وعارفا بالموسيقى. وقد أكد مواهبه في مواضع كثيرة. وقد قام بكتابة الخطوط التي على الحرم الهمايوني على النسق القره حصاري. كما أنه عبر في كتابه، عن الانبهار الذي شعر به أمام الكتب المذهبة وذات المنمنمات التي شاهدها في مناطق ترحاله. وكانت له روح رقيقة متصوفة يصف نفسه بأنه «أوليا بلاريا» (أوليايي بي ريا) وبسبب تواضعه التف حوله الكثير من الأصدقاء. فضمت حاشيته الولاة والقادة. لكنه لم يتراجع عن توضيح ما لمسه فيهم من نقاط للضعف. ويغلب علي أوليا جلبي في كتابته حسن التعبير. أما أسلوبه، يجذب القراء رغم مايبدو فيه من أخطاء نحوية متناثرة. ونجد فيه بعض الأشكال التي لاتتوافم في فهمها مع لغة الكتابة. وقد أعطى أوليا جلبي أهمية خاصة لأشكال الحديث واللغة بين الاناس في الأماكن التي طاف بها. وهو بعبارته البسيطة وتعبيراته الصادقة التي كتبها وكأنه يتكلم، ظهر وكأنه يخاطب بها كل إنسان. وقد رأي بعض الباحثين في سياحتنامة هذه أنها مذكرات. وكان أوليا جلبي كثيرا مايدنو من الأحداث بصورة أخّاذة. ولايتورع عن تقليد من يلتقي بهم من شخصيات. وكان أحيانا يروي حادثة أو خبر مصطنع لكي يجعل الشئ الذي ينقله أكثر إثارة (تلونا). كما يبدو وقد أفسح مكانا للغريب من الوقائع التي لاتتفق مع العقل بغرض جذب اهتمام القارئ. مثال ذلك أن القرية التي يمر

منها الأفيال، تقوم النساء فيها بتوليد الأفيال. والمغامرات التي تقص أنباء الغيب، والأطباء الذين يعالجون الأمراض التي لاعلاج لها، وما شابه ذلك. ويصيغ كل هذه الأشياء غير العادية بأسلوبه وشرحه الجميل، حتى أنه يمكن القول إنه اجتهد بهذا النوع من الحكايات التي تثير اهتمام قطاع كبير من الناس، وأن يضفي على كتابه مسحة شعبية. ودفعته رغبته في أن يترك أثره في الأمكان التي يمر بها- إلى جانب تواضعه- إلى أن يكتب على جدران المنازل «الفاتحة على روح أوليا» فقد كان صاحب دعابة.

وحسبما نتبين من كتابه، كان أوليا جلبي يحب أوقات المرح، كما كان صاحب ذوق. ولاشك أنه لهذا تأثير فيما كتبه وذكره من وقائع غريبة ولطائف. وكان أثناء تجواله في كل شبر من استانبول، يخالط رواد المدارس والحانات ورواة المأثورات الشعبية، كما تعرف على أرباب الحرف فيها وصادقهم.

مسار رحلة أوليا جلبي

تضمن كتاب سياحتنامه أوليا جلبي بمجلدته العشر، الأحداث التي شاهدها أوليا جلبي في الأمكان التي تجول بها، ويعتبر بمثابة كتاب شامل وهام في تاريخ الثقافة التركية.. وهذا الكتاب المعروف باسم سياحتنامة أوليا جلبي، وباسم أوليا جلبي سياحتنامه سي، تحمل بعض النسخ منه اسم «تاريخ سيّاح». والجزء الأول منه يصور استانبول، والثاني يصور بورصه وإزميد، وبارطين، وأماصرا، وإبنه بولو، وسينوب، بافرا، وصامصون، وكيره سون، وطرابيزون. كما يقدم معلومات عن كرجستان وديار الأباظه، وحملة كريت وفتح قلعة خانيه، ودورجه، وبولو، وكرهده، وأماسيا، ونيكسار، وأرضروم، وأرزنجان، وشبنقره وحصار، ومرزيفون، وجوروم. وفي الجزء الثالث يأخذ بالحديث عن اسكيشهر، وليكين، وقونيه، وأولوقيشله، وباياص، والإسكندرون، وأنطاكيه، وحما، وحمص، والشام، ويافا، وبحر لوط، والرمله، ثم قيصري، وسيواس، وموش، وعرب كير، وخربوط، وبينكول، ومدن برغاز، وبراوادي، وشومنو، هزارجراد، وروسجق، ويركويي، ونيبولو، ثم يصف أطراف

أوزي، وكستانجه، وباباداغي، وزغره العتيقة، وفلبه، وتاتار بازارجق، وصوفيا، وجسر مصطفى باشا، وأدرنه. وفي المجلد الرابع يقدم معلومات عن ديار بكر، وماردين، بتليس، وان، ومن إيران رومية وتبريز، وهمدان، وكرمان شاه. في المجلد الخامس يبدأ أوليا جلبي بوصف ما رأه في مساره من إيران إلى بغداد، ومن هناك إلى سعرد، ومروره بطوقاد أثناء عودته إلى استانبول. بالإضافة إلى أنه في هذا المجلد يصف الطريق إلى اوزي، ويصف وارنه، وإسماعيل، وآق كرمان وبندر، وحملة لهستان (بولندا) التي اشترك فيها من هناك، وأوكرنيا، وبروت، كلبورن، ورحلة الأناضول التي خرج فيها مع السلطان محمد الرابع بعد عودته إلى استانبول، والوقائع المتعلقة بأباظه حسن باشا رئيس الجلاليين. والأماكن مثل القلعة السلطانية وبوزجعده، غاليبولي، وبولاير، وكاشان، والقره، والبوسنه، واسكوب، ومناستر. وفي المجلد السادس يبدأ أوليا جلبي بذكر الحملة التي خرج فيها إلى الإردل برفقة كوسه على باشا، ويمر ببلاد الصرب، والمجر، ورومانيا. ويتكلم عن المدن التي في هذه البلاد. وفي المجلد السابع، يصف الذهاب إلى فيينا مع سفارة قره محمد باشا، ويصف قانيجه، واستويني، وبلجراد، فيينا وقلاعها، ثم الوصول إلى المجر وبودين، وطمشوار، وولايات الأفلاق والبغدان، والأقوام في ولاية القازاق، والقرم وداغستان، والقوقاز، ولغاتهم، وأعرافهم، وعاداتهم. . وفي المجلد الثامن، ويصف العودة إلى استانبول من الآزاق عبر طريق كفه، وباغجه سراي، وقيل بورون، وآق كرمان وإسماعيل، وبابا داغي، وخاص كوي، وأدرنه وديماطوقه، وكومولجينه، ودراما، وسلانيك، مرورا من الزوره وخانيه، كما يتكلم عن ما بعد اشتراكه في فتح قنديه، فيذهب إلى الأرناؤوط، ومن هناك يصف العودة إلى استانبول من فوق يانيه وتبه دالن، وبولونيا، ودراج، وايلباصان، واوهري، ورسنه، ومناستر، اشتيب، وجسر مصطفى باشا وأدرنة. وفى المجلد التاسع، يصف المدن الواقعة على الطريق الطويل الممتد من استانبول إلى مكة والمدينة، وغرب وجنوب الأناضول وسوريا. أما الجزء العاشر فكله خاص بمصر، وتناول فيه الأقاليم القريبة من مصر، وشواطئ النيل، والسودان وبلاد الحبشة.

مسار رحلة أوليا جلبي في مصر، كما وردت في رحلته

القاهرة - شبرا - بطن البقر - قنطرة الملك الطاهر - مصر خيم - عفريت - تفاحية - مبهوم - شبرتين - زفتي - ميت غمر - سرسنه - منوف - سرسنه - طوخ النصارى - طنطا - محلة مرحوم - ايبار - نهاريه - بلدة القبيلة - بلدة الفرزدق - محلة صال (محلة قلبية) - محلة أبو علي - بلدة المجنون - دسوق - مرقص - رحمانية - داودية - سنهور - دمنهور - حوش عيسى - مدينة العُقَّاب - دمنهور - جبل قاسم بك - بصطيره - رزقون - زاوية الجنزال - ناصرية - سنتاويه - برسك - نحل - أبو خضر - قراوي - قافلة - دشوش - بُركه - رويجب - لقون - بُركه - جريون - مولّضفي - اقريش البستلقون البيضا - جنان - الإسكندرية - أبوقير - ادكو - رشيد - الإسكندرية - عزبة المغدي - هدية - محلة الأمير - برمبال ديَّه - ادفينا - محلة مطوبس - جمشيره - فزاده - ديروط - سنديان - عاطف - فوه - شرف - شرمباي - مالك - شموخزاد رحمانية - إبراهيم الدسوقي - أبو على - مركز - دية البير - شبراخيش - شبريش - ميت جناح - كفر جديد - نقله - فرزدق - اشلميه - طاهريه - كفر الزيات - شبوج - سلمون - كفر النحا - كفر جديد - أبو أحمد - البحيرة - زايره - طنوب - طيرنه - علقمة أبو الجاوي - طماليه - جزي - طراره - زاويَّة - أبو نشانه - إشمون جريس - كفر شركس - قوطه - أم دينار - شيراوي - دراري - بارودخانه - شبرا - الورّاق - امبابة - بولاق - العزبه - عزبة الحاج - البرلس - بلطيم - السنانية - دمياط - تينه - فَرْص فارسكور - كفر السليمانية - شرباص - ميت أبو غالب - رأس الخليج - أبو عبد الله - طهربة - بُشاط - دِنْجي - مساط - شربين - بدوي - بترا - درمبال - دياسط - خياريه - قاش - المنصورة - المنزله - طلخا - الشيخ رمضان - ميت خميس - ميت الغرقي - ميت ويش - ميت عساس - ميت نورسي - ميت المنيا - سمنهود - أبو على قيطاس - أغا- محلة الكبير (المحلة الكبرى) - سمنود - أبو الحارث - أبوصير - ميت برقع - بريه - المنظره - ميت بدر - ميت دمسيس - ميت أنسا - سنباط - شرنجي - دنهور - غمار - رفتي - المعصرة - غريب - صهريج -

مسيد - صيد - عز - هارون - صفين - تغني - سندي - بريّ - أشمون - مويش - ملاو - بنها - بطاي - رمبلي - أبو الطوافتي - العطار - سيدي - خصر - عطف - طُخلا (طلخا) - جوخ (طوخ) - عفيف - طنط - برشمس - برسوم - أبو شعره - قليوبية - شبرا - شروي - شبرا - القاهرة - البساتين - المعدية - مُحنط - قهوه خانه - دلي حسين باشا - الزاوية - كوم الدير - ميمونه بني سويف - الفشن - أبو جرجو - كليس (قيس) - سمنود سعيد - المنيا أشمونين - ملاوي - دار شيد - صنبو - منفلوط - أسيوط - شطوب - جبل الطير (طيلمان) - أبوتيج - الشيخ بن عابد - طما - الجزيرة - سوهاج - المنشية - جرجا - خالد - جمادي - مزار - بلابيش - فوحة على - قنا - القصير - أنبوت - قوص - شمونين - طوت - شفارس - أم على - حجيزه ردسي - شبيكه - سلسلة - إدفو - - كوم سياه - كوم امبو - سنباص - أسوان - الشلال الأول - علوي- باب النوبه - قلعة إبريب - كنوزين - مهريه - كلابشه - أبوخور - سنيال - قشطامينه - كورد - وادي العرب - أزرق - إبريم - وادي حلفا - إبريم - سبوع - كنوز - طمانيس - رقُبه - كرخ عرباني - حمام فرعون - باجه - إدفو - حجيزه - جعفري - كلخ - فرشوط - سمنهو - برديس - أسيوط - هركه - قلمون - ألواح - البهنسا - - لاحون - الهوارة - الفيوم - كاميا - خان القهوة - أطفيح - الجيزة - القاهرة - الإسكندرية - القاهرة - سبيل علام - المطرية - عين شمس الخانكة - مشيره - دراعم بابيس - رني - قرين - ستاره - الصالحية - قرين - على - القاهرة - الإسكندرية.

مصادر رحلة أوليا جلبي

يقول أوليا جلبي في مقدمة رحلته في مصر :

«وبينما كنت أبحث عمن أقام تلك الأبنية ذات الطلاسم، وتلك القصور العالية رجعت إلى مالا يحده الحصر من التواريخ القيمة، وهذا بيان بعناوينها:

١- تاريخ المقريزي وهو كتاب عظيم مشهود له بصحته التاريخية، وهو مستخدم من

كتب قبطية وسريانية، ودهلوية ومغولية ولاتينية ويونانية ويتقبله الخاص والعام بقبول حسن. ٢- تاريخ ابن جرير الطبرى صاحب التفسير القديم وهو تاريخ نفيس. ٣- تاريخ الشيخ الإمام السيوطى، وهو تاريخ له ماله من عظيم قيمته. ٤- تاريخ صابئة. ٥- كتاب فتوحات مصر لابن عبد الحكم. ٦- كتاب فضائل مصر لابن الكندي. ٧- كتاب ابن زولاق (فضائل مصر وأخبارها). ٨- كتاب خطط المقضاع. ٩- كتاب إيقاظ المتغفل لتاج الدين محمد بن عبد الوهاب الزبيري. ١٠- كتاب مناهج الفكر ومنهج العبر. ١١- كتاب عوان عنوان السير. ١٢- كتاب المسالك لابن فضل الله. ١٣- كتاب الإصابة في معرفة الصحابة. ١٤- كتاب الرجال العشرة للحسيني. ١٥- كتاب طبقات الحفاظ للذهبي. ١٦- كتاب طبقات الشافعية للسبكي. ١٧- كتاب طبقات المالكية لابن فرحون. ١٨- كتاب طبقات الحنفية لابن دقماق. ١٩- كتاب مرآة الزمان لابن الجوزي. ٢٠- كتاب البداية والنهاية لابن كثير. ٢١- كتاب إنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر. ٢٢- كتاب الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد. ٢٣- كتاب السكُردان لابن حجلة. ٢٤- كتاب سجع النهرين في أوصاف نهر النيل. ٢٥- كتاب ثمار الأوراق لابن حجة. ٢٦- كتاب تواريخ الشهاب جلبي ترجمة لكتاب حسن المحاضرة «للشيخ السيوطي. ٢٧- تاريخ محمد جلبي.

ثم يقول أوليا جلبي :

«علاوة على تلك الكتب السالف ذكرها قرأت كثرة من الكتب والدواوين في مصر.

وهكذا يوضح أوليا جلبي للقارئ الكتب والمصادر التي اطلع عليها قبل زيارته لمصر ثم يوضح أن هناك كتبا أخرى استعان بها وقرأها فى مصر.

أما عن طريق تعامل أوليا جلبي مع المصادر فقد اختلفت من مصدر لآخر، حيث أن هناك مصادر مفضلة بالنسبة له اعتمد عليها اعتمادا كبيرا في أغلب فقرات كتابه ولتوضيح ذلك على النحو التالي:

أولا : يقول أوليا جلبي عن مصادره المفضلة.

«وليعلم من يطلعون عليها (يقصد رحلته) أن ما في رحلتنا هذه من أخبار وأحداث مستمدة من خرائط علوم الهيئة والأطلس والجغرافية وتواريخ القبط وتواريخ اليونان وعلم النجوم وبعض العلماء ذوي العقول الراجحة.

ومن أمثلة استعانته بتلك المصادر التى ذكرها يقول :

وبناء على تواريخ اليونات أن مصر أول بلد عربى على وجه الأرض تميز بالعمائر العظيمة والأخرى بغداد والصين وعراق الداديين وهذه المدن الأربعة تشكل السوء الأعظم من العالم.

«وبناء من أمثلة اعتماده على تواريخ الصابئة وهي من المصادر الأساسية له خاصة في فترة التاريخ القديم منذ هبوط آدم، وأخبار وسير أبنائه يقول: «وجاء في تواريخ الصائبة أن إدريس كان له في علم الكتاب اليد الطولي والقدم الراسخة، وكانت له معرفة بكل ما في الوجود من شئ، ويحرز جميع الوقائع في يوميات ويحفظها في جبال الأهرام».

أيضا اعتمد على تواريخ القبط فقال في إحدى فقراته التى نقلها عن هذه التواريخ وهي خاصة بدعاء سيدنا آدم عليه السلام لمصر يقول أوليا جلبي: «أما دعاؤه لمصر، الذي أخذت ترجمته عن التواريخ القبطية فسوق نكتبه في مجموعتنا تلك. دعاء سيدنا آدم عليه السلام صفي الله في حق مصر بلسان كلام الله العبري «صام اللهم طط زد لم يتم إيما نمي حوز جيرز باشيطا لأن صقله فلازريبا قورتا ربني قورتا بني (مصرع ثاني) شوزم تراكن جملة ملكلرك طرز ولم شريزتنا بكا خذمت اتسنلر.

وعن مصادر في المعلومات الجغرافية كان «بطليموس» هو المفضل له حيث يقول: «وعلى حد بطليموس الحكيم على وجه الأرض مئتا نهر عظيم وأربعة وأربعون ألف عين جارية».

هذا بالنسبة للتاريخ القديم، والنواحى الجغرافية، أما عن تاريخ مصر الإسلامية فإن أهم المصادر التى اعتمد عليها هو كتاب تاريخ المقريزي والذي نقل عنه الكثير واستشهد به في كثير من مواضع كتابه، بل ومدحه قائلا:

«وقد اطلعت على كتب التاريخ ومنها كتاب المقريزي القيم، إنه واسع العلم بالعربية والسريانية، والقبطية، واليونانية، وكأنه في كثرة سياحاته فيثاغورث وقد تحدث عن أول من بنى مصر القديمة وكان ما قاله صحيحا، وهو القائل إن آدم استوطن مصر ثم أمره

الله بالتوجه إلى الشام، وكان لشيث ولده اسمه (غرياب) وابنه نقراوش، وكان نقراوش هذا متضلعا في جميع العلوم، وقد أحب نقراوش هذا وسماه «مصرايم» وأمره بتعمير مصر ومضى آدم إلى الشام لزراعتها ومن أسرة «نقراوش» هذا سبعون عادروا الديار فرارا من ظلم قابيل. . .»

ويقول أوليا جلبي عن المقريزي في موضوع آخر من كتابه إنه مؤرخ العالم وهذه المبالغة فى مدحه إنما لشدة إعجابه به وأخذه عنه فيقول:

«يقول مؤرخ العالم الشيخ المقريزي: إنه لايخلو ذراع من أرض مصر من كنز قديم».

وهكذا تكرر استشهاد ونقل أوليا جلبي الكثير من تاريخ المقريزي. ومن المصادر التي اطلع عليها أوليا جلبي كتاب تذكرة داود، ويبدو أنه من الكتب التي اطلع عليها في مصر حيث إنه لم يذكره في المصادر التي ذكرها بداية كتابه يقول أوليا جلبي عن عصير العرقسوس: «وقد بذكر داود في تذكرته سبعين فائدة له، ومن أعظم فوائده أنه يطهر المثانة ويدر البول».

ومن المصادر التي اعتمد عليها أوليا جلبي خاصة في ذكر الفتح الإسلامي لمصر كتاب فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم وإن كان ما أخذه عنا بن عبدالحكم قليل فهو لم يذكه كما يذكر المقريزي وقد أخذ عنه ما يلي:

وبناء على قول بن عبدالحكم رحمه الله: إن جبل خليل الرحمن في القدس وجبل طور سيناء وجبل ينبع وعرفات وإلي ساحل نهر مراد والرها وحلب وريح ومن اللاذقية إلى ساحل البحر حتى مصر كل هذا أرض مقدسة، هذا قول ابن الحكم.

ويبدو أن أوليا جلبي لم يكن ينقل نقلا تاما عن هذه المصادر وإنما كان يصيغ ما يأخذه منها بأسلوبه، فقصة زيارة عمرو بن العاص لمصر في الجاهلية مقارنة بما جاء في رحلة أوليا جلبي فوجدته يتفق في المضمون مع ماجاء في كتابي فتوح مصر لابن عبدالحكم وما جاء فى كتاب حسن المحاضرة للسيوطى ولكنها تختلف بعض الشئ في صيغتها كما أنها أكثر اختصارا فى رحلة أوليا جلبى.

ومما يؤخذ على أولياء جلبي أن سرده للجزء التاريخى المتعلق بفتح مصر فى عهد عمر بن الخطاب يتسم بالسطحية حيث لم يأخذ عن ابن عبد الحكم إلا ما ذكرناه سالفا

مع العلم إن ابن عبد الحكم مرجع المؤاخين القدامى فى كتابه حسن المحاضرة. أيضا لم يحدد المصدر الذى رجع إليه فى الأحداث المتعلقة بهذه الفترة.

ومن المصادر الأخرى التى اطلع عليها وذكرها كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى، والذى نقل عنه كثيرا من المعلومات الخاصة بالطوفان ومصر، وأبناء نوح عليه السلام، وكتاب ابن ظهيرة الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة.

أيضا من المصادر التى اطلع عليها وذكرها فى ثنايا كتابه ولم يذكرها فى بداية كتابه عند ذكره للمصادر كتاب مروج الذهب للمسعودى، وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، وكتاب عبد الوهاب الشعرانى أحد أقطاب الصوفية فى مصر العثمانية، وقد اعتمد أوليا جلبى على كتابه لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار أو مايعرف بالطبقات الكبرى، وكتابه البداية والنهاية لابن كثير. أيضا اعتمد على كتب التفسير فاستخدم تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، كما استخدم العديد من كتب الحديث كان أهمها كتاب الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م كذلك صحيح مسلم.

يؤخذ على أوليا جلبى قوله فى كثير من الفقرات التى ينقلها:

وبناء على قول كثير من المؤرخين أو بناء على قول كثير من المفسرين أو أجمع المؤرخون دون تحديد مصدر نقل عنه أو تحديد من هم هؤلاء المؤرخين أو المفسرين والأمثلة على ذلك كثيرة منها. قوله «وهذا مااجتمعت عليه كلمة جميع المؤرخين»، أيضا قوله «وبناء على قول جميع المفسرين والمؤرخين» وفى ص ٢٩ «أجمع المؤرخون على القول الصحيح وهو أن مصر دخلت فى حوزة أمة محمد عبد وفاة النبي (ﷺ) بثمانية عشر عاما».

وهكذا تكثر هذه المقولة فى كتابه أوليا جلبى وكان الأفضل أن يذكر اسم كل مصر ينقل عنه.

ورغم ذلك نجد أوليا جلبى يتميز بتحليل ومناقشة أراء غيره ومقارنة بعضها ببعض فى كثير من مواضع كتابه مثل قوله: «ومن الخطأ قولهم إن الفيّوم من ألف يوم، وإن

وفى تفسير قوله تعالى «مثل جنة بربوة» يقول بعض المفسرين إن المقصود بالربوة مصر كما قال بعضهم الآخر المراد بها دمشق، غير إن جمهرتهم قالت إن المقصود بها مصر».

ويقول فى موضع آخر مناقشا ومفندا أراء بعض المؤرخين:

«قال بعض المؤرخين إن حديقة إرم هى مدينة الإسكندرية، أما المقريزى صاحب الخطط فيقول: إن حديقة إرم فى أرض بجوار مصر تسمى «سبيل علام» وقد أخفاها الله حتى قيل إن جواهر وجدت فى سبيل علام، وقد رأيتها تباع بألف قرش، وبناء على قول بعض المؤرخين إن حديقة إرم بالقرب من دمشق أن أعرابيا أنخ بعيره فرأى الجنة وذلك فى عصر بنى أمية، وملأ مخلاة بثمار أشجارها وأحجارها وحملها إلى الخليفة فى دمشق وعرضها عليه، فعلم أن حديقة إرم بالقرب من دمشق، وقال كثر من أهل العلم أنها مصر لأن بانيها شداد بن عاد ووطنه الأصلى مدينة أسوان وقالوا إن حديقه إرم فى مصر على الأرجح» وعن نقده لآراء غيره يقول فى ذكره لمعركة مرج دابق بين السلطان سليم خان العثمانى والسلطان الغورى» ويقول بعض المؤرخين إن الغورى قتل فى هذه المعركة، ولكن هذا ليس بصحيح فمن المحقق أنه عاد إلى مصر وحشد جيشا. ويؤخذ عليه هنا أنه لم يأت بالأدلة والبراهين التى تؤكد على صحة ما قاله.

ومن أمثلة نقده وتحليله ما جاء بشأن مدينة القسطاط: يقول: «ويسميها المقبط الفسطاط، ولقد أصبحت مدينة معمورة عظيمة إلى عهد الطوفان، وهي الآن كذلك مدينة عتيقة، والأحجار التى فيها كبيرة كأنها أحجار الهرمين، وطول الحجر عشرون وعرضه خمسة عشر ذراعا، وفى الأبنية الأثرية حجارة كثيرة كأنها الهرمان، وكل حجر يبلغ فى الطول والعرض عشرين وخمسة عشر ذراعا، وقد رآها بعضهم، فقالوا إنها من بناء الجن، لأن بنى الإنسان لايقدرون على حمل هذه الأحجار، أما من يعارضون فى هذا فليس لديهم من خبر ولاعلم، فما وجد بعد هبوط آدم من الناس من له مثل هذه القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلايتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاث أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جبلا، ويستطيع نقله من مكان

القوة، وكان طـول كل إنسان مائة ذراع، أمـا الآن فلايتجاوز طول الإنـسان ذراعين أو ثلاث أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفـع جبلا، ويستطيع نقله من مكان إلى آخر، ومن يـعارض فى ذلك لاعلم لـه ولاخبر لديه عن عـلم جر الأثقال وليـعلم أيضا أن (زحمة الرجال تقلع الجبال).

أما عن مصادر أوليا جلبي الخاص بالإحصـاءات والأعداد التى ذكرها فى كتابه فيبدو أنه اطلع على سجلات خاصة بذلك وقد ذكر فـى كثير من مواضع رحلته أنه أخذ هذه الإحصاءات عن ما يسمى بسجلات الغزالى حيث يقول:

«بناء على ما سلف ذكره، وبناء على ما ذكـره الغزالى عن مصر أم الدنيا ففى مصر ٧٤٠ حيا للمسلمين وفيها ٧٨ قصرا لسلاطين السلف وأن اللسان ليعجز عن وصف كل منها فعلى شط بركة بـركة الفيل قصر السلطان قايتباي وفى قلعـة الكبش قصر السلطان جاولى وأسفلـه قصر محمد بك، وقبالـته قصر نذير أغا وقصر رضـوان بك أمير الحج وقصر يوسف بـك أمير الحج الأسبق، وقصر الشـيخ السادات وقصر بيقلـى محمد بك وقصور نوالى بك.... على هذه القصور (٢٢٠٠٠) بيت لـلمسلمين، أما القبط فلهم ٢٠ حارة و٦٠٠ منزل وعددهم ٩٠٠٠ قبطى يدفعـون الخراج ويحصله أمين البحرين، واثنتان وعـشرون جماعة يهـودية تشكل حارة واحدة... وبـيوتهم من خمـسة أو ستة طوابـق... وعدد اليهـود ٦٠٦٠ نسمة يـدفعون الخـراج وهناك أربع حـارات للأورام وحارتـان للأرمـن ومجمـوع سكان الـروم والأرمن ٣٠٠٠ نـسمة يـدفعـون الخراج، والنصارى مـن التابعين لبـلدان أوربا أو الدولة العـثمانية فيـتراوح بين ٦٠٠٠-٧٠٠٠ نسمـة، ولاوجود لغجر الأورام، أما جـميع أهل مصر فـهم قوم فرعون، وعلـى حافة البركة حارة لنصارى أوربا وفيها مراكز لقناصل سبع دول أوربية بها ٣٠٠٠ من نصارى أوربا.

ويقول فى موضع آخر: وطبقا لما ورد فى كتب «الغزالى» فإن ذكر جميع المساجد أمر خارج عن طاقة البشر وهذا مافيه الحاجة إلى مجلد خاص به».

أيضا عـند ذكره لقـرى مصر وإجمالـى أكياس الخزانة وعـددها ودراهمهـا والدوانق

ويبدو أن أوليا جلبى استطاع الأطلاع على هـذه السجلات حتى يتمكن من ذكر هذه الأرقام الكثيرة جدا والإحصاءات الدقيقة خاصة فـيما يتعلق برواتب وطوائف الجند وما يتقـاضونه كل شهر أو كـل ثلاثة أشهر أيضـا ما يتعلـق بعوائد القرى والمـدن والمحاكم وغيرها. فيقول أوليا جلبى عن هذه السجلات:

«كما وجد رئيس المترجمين، وأمين السجلات، وهناك قبة أخرى من الحجر تراكمت تحتها السجلات الشرعية منذ عهد الخلـيفة عمر رضى الله عنه وأصبحت وكأنها الجبال، وهذه السجلات تحت تصرف أمين السجلات ومعهم كتخدا».

وبعلاقة أوليـا جلبى بالإدارة العثمانـية فى مصر، وهى علاقة كـانت لاشك وطيدة حيث كان مقربا من الكتخدا وغيـره، استطاع الأطلاع على هذه السجلات، وهذا الذى مكنه من رصد هذه الأرقام وهذه الإحصاءات.

يعد أولـيا جلبى الرحـالة الوحيد من بـين كل من سبقـوه بالرحلة إلى مـصر الذى حرص عـلى إظهار الجـوانب المضيـئة للحـضارة الإسلامـية فى مصـر فى فترة الحـكم العثمانى، وهى الفتـرة التي نعتها كثير من المؤرخين والكتاب بـأنها فترة تخلف وظلام، فجاءت رحلة أوليا جلبى لتظهر هذه الجوانب وتبين ماكان فى مصر من مدارس ومساجد وكتاتيب، ودور للقراء، وتكايا، ومستشفيات ومـحاكم، ومبرّات، كما بينت بالتفصيل صورة الحياة الاقـتصادية فى مصر من خـلال عرض ما كخان بها من حـرف وصناعات ووكالات ودكاكين، ومسـتوى معيشة الناس وحالـة الرغد والرفاهية التى شـهدها أوليا جلبى فى أثناء سياحته التى قام بها فى مصر.

أبرز أوليا جلبـى أهمية مصر، وعظمة مكانتـها من خلال الخلفية التاريخيـة البسيطة التى بدأ بها رحلته والتى تناول فيها تاريخ مصر منذ هبوط آدم إلى الأرض وحتى الفتح العثمانى لها، ودعوة الأنبياء لها، واستقرارهم بها، وذكرها فى كتاب الله وفى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم.

جمعت رحلة أولـيا جلبى بين نمطين من الرحلات التـى تمت لمصر، الأولى رحلات الأجانب الغير مسلمين والتى ركز أصحابها على إظهار صورة مصر الفرعونية والمسيحية من خلال آثـارها، والنمط الآخـر رحلات المسلمـين أمثال بن جبـير وابن بطوطـة التى أظهرت بـعض مظاهر الحضـارة الإسلامية فى مصـر من مدارس ومساجد وخـانقاوات وغيرها، فجمع أوليا جلبى بين النمطين فـلم يهمل آثار الفراعنة بمصر من أهرام ومقابر وغيرها.

تميز أوليا جلـبى بالدقة فى الحصر، والاعتمـاد فى وصفه على مشاهداته الـشخصية وليس على مشاهدات وآراء الـغير والإتيان بإحصاءات غاية فى الأهمية لـم يستطع غيره من السابقين الإتيان بها.

لم تقتصر سياحـة أوليا جلبى ومشاهداته على القاهرة أو مصـر القديمة والإسكندرية كسابقيه ولكـنه زار وشاهد أغلب - إن لم يكن كل - مدن وقصـبات مصر آنذاك حتى مدينة أسوان بل وزار بلاد السودان والحبشة وهذا ما لم يقم به غيره من الرحالة السابقين عليه.

عرض موجز لرحلة أوليا جلبى فى مصر والسودان والحبشة

وتتناول رحلة أوليا جلبى إلى مصر فى بدايته تاريخ مصر منذ بدء الخليقة وهبوط آدم إلى الأرض والدول التى تعاقبت على حكمها حتى الفـتح العثمانى لها ونظم العثمانيين بها، ثم وصف للقاهرة أو مصر القديمة كما شاهدها أوليا جلبى حيث قام بتصوير الحياة الاجتماعيـة والاقتصادية والعلمـية بها، ومنشآتهـا من منازل وجوامع ومساجـد وتكايا وأسبلـة ومدارس وكتاتـيب وحمامـات ووكالات وخلجـان وترع وزراعات وحيـوانات وأضرحة وغيرها، ثم وصف لبقية رحلته مـن القاهرة إلى الإسكندرية ثم رشيد ودمياط ثم عودته لـلقاهرة واستئـناف رحلته إلى بـقية قصبات ومـدن مصر إلى الصعـيد فمزار الفيوم وبنى سويف وأسيوط وسوهاج وغيـرها حتى وصل إلى أسوان وتوغل حتى بلاد السودان والحبشة ثم عاد إلى مصر مرة أخرى.

وقد جاءت رحلة أوليا جلبى فى نحو ثلاثة وسبعين فصلا، بدأها بمقدمة حمد الله فيها وأثنى على رسوله الكريم، ثم تناول قصة خلق آدم وحواء وهبوطهما إلى الأرض وتنقلهما فى الأرض حتى وصولها إلى مصر حيث صارت مستقرا لهما ولذريتهم.

ثم ذكر أوليا جلبى بداية دخوله مصر وإعجابه بها وبأبنيتها، والمصادر التى اطلع عليها وفى ذكر مصر فقال فى تواضع جم يدل على رفعة نفسه وتدينه الشديد:

«دخلت أنا أوليا جلبى الحقير سياح العالم ونديم آدم، مصر فى السابع من صفر عام ثلاثة وثمانين وألف، فوجدت داخلها وخارجها وأعجبت له كل العجب ذلك أن ما فيها من عجائب وغرائب الأبنية ليس له من وجود فى ديار سواها، وبينما كنت أبحث عمن أقام تلك الأبنية ذات الطلاسم وتلك القصور العالية رجعت إلا ما ليحده الحصر من التواريخ القيمة».

وفى خاتمة شرح أوليا جلبى خط سير رحلته التى كتب مسوداتها فى مدينة أبريم بالحبشة وهى آخر ما وصل إليه فى رحلته حيث يقول فى ذلك «واسترحنا فى مدينة أبريم ثلاثة أيام، ووضعنا ما ثقل من أحمالنا فى السفن وأرسلناها إلى جرجة ولقد كتبت مسودات رحلتى».

ثم عاد أوليا جلبى إلى مصر ولكنه سلك الضفة الغربية للنيل أثناء عودته حيث كان فى ذهابه يسلك الضفة الشرقية وفى ذلك يقول:

«ومن مدينة أبريم ودعت خلانى وأحبابى وركبت السفينة فى النيل إلى الجانب المواجه لأن فى ذهابى رلى فونجستان شاهدت الضفة الشرقية للنيل ولذلك شئت أن أشاهد الضفة الغربية».

ومر أوليا جلبى بعدد من المدن والقصبات أثناء عودته حتى وصل مدينة «ألواح الكبرى» بولاية الواحات وبها بلغ كتابه نهايته، ووضع أوليا جلبى خاتمته التى شرح فيها خط سير رحلته ومشاهداته وطريقة كتابته لهذا الكتاب فيقول :

«ولله نحمد أن كتابنا هذا بلغ نهايته هنا، كما نحمد الله نثنى عليه الثناء كله على أننا أقمنا فى ديار مصر القاهرة نادرة العصر وجعلنا أوراق كتاب رحلتنا هذه المتفرقة مثل

خرقة الدراويش ذات الألوان وكانت ألفاظها من بدايتها إلى نهايتها فى عصر وإلى مصر الباشا وأتممنا كتابنا فى ظل خيرة ورعايته، وإن كان هذا الكتاب فى رأى العقلاء والحكماء لايخلو من نقص وعيب وذلك لكثرة تنقلنا بين البلاد ولم يهتم بكتابته بألفاظ جذلة، والمرجو منهم أن يغضوا النظر عن السهو الغلط عنه. . . فلقد حملت مسودات هذا الكتاب وأنا أسيح فى البلاد خمسين عاما ولكثرة سياحتى انزويت فى ركن العزلة، ولم يتيسر لى أن أتتبع كل ما جاء فى التواريخ، ورأيت نهاية حدث من الأحداث، ولم أقيد فى كتابى نهاية حدث بالذات ولكن أستاذنا فى ديار مصر الشيخ على شمرلى ألقيت إليه السمع وأخذت عنه التفاسير الشريفة والأحاديث النبوية والآيات الكريمة فأثبتها فى مواضعها، وبذلك جرأت على كتابة هذه الأوراق (والعذر عند كرام الناس مقبول) وأنا أدعو الله له بالخير ولم أورد المثنويات فى خاتمة الكتاب وذكرت هذا التاريخ.

كتبه أضعف الكتاب الحاج محمد المعروف بحافظ القران المجيد من تلاميذ محمد راسم كاتب السراير لسنة خمس وستين ومائة وألف من هجرة من له السعادة والمجد والشرف.

منهج أوليا جلبى فى كتابة رحلته

استهل أوليا جلبى رحلته بموجز عن تاريخ مصر منذ بدء الخليقة، واستقرار أبناء أدم من الأنبياء بها، وحكام مصر قبل الطوفان وبعده حتى الفتح الإسلامى لها فى خلافة عمر بن الخطاب، وتعاقب الدول الإسلامية على حكمها حتى الفتح العثمانى لها.

وقد كان هذا الموجز التاريخى من أسباب عظمة هذا الكتاب، حيث جعله عملا ثقافيا متكاملا يمتع قارئه، فهو يجمع بين تاريخ مصر وجغرافيتها منذ أقدم العصور وحتى عصر هذه الرحالة وهو بذلك يختلف عن أسلوب سابقيه من الرحالة فى هذا المجال.

وأفاض أوليا جلبى فى ذكر الفتح العثمانى لمصر، ودواوين العثمانيين بها ورسومهم، ومواكبهم، وجندهم ورواتبهم وملابسهم، وفرقهم وذلك من خلال صفحات الكتاب.

علاقة مصر والدولة العثمانية من خلال رحلة أوليا جلبى

من أهم مميزات هذا الكتاب هو توضيحه لموقف مصر من الدولة العثمانية قبل دخول العثمانيين إليها، ثم توضيح وإظهار الصورة المضيئة للعثمانيين فى ظل حكمهم مصر.

أما بالنسبة للنقطة الأولى والمتعلقة بموقف مصر من الدولة العثمانية قبل الفتح العثمانى لها بيّن أوليا أن دخول العثمانيين مصر كان بناء على رغبة أهلها وبموافقاتهم ولم يدخلوها عنوة حيث يقول:

وبسبب ظلم الشراكسة وطغيانهم، قدم من مصر كثير من أولياء الله إلى الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى يشكون، كما تشاور العلماء والصلحاء فى الأمر وقالوا: إذا مضينا من مصر إلى المغرب وجدنا قوم سوء وإذا مضينا إلى الهند كانت بلاد بعيدة، وإذا مضينا إلى العجم، وجدنا فى مذهبهم شبهة، وإذا مضينا إلى الأكراد فدولتهم لاثبات لها، فهلموا لنذهب إلى آل عثمان فإنهم مؤمنون موحدون، إنهم يحبون العلماء والصلحاء والمشايخ وهم أهل الشرع وأصحاب السيف، وحيثما مضوا كان النصر لهم، هلموا لنمض، إليهم، فتم اتفاقهم على ذلك وقرأوا الفاتحة، وهتف كل من الشيخ أبو الجارحى، والشيخ مرزوق كفافى قائلا: تعال يا سليم تعال ياسليم وكان السلطان سليم فى مشتاه بأماسية مع وزراءه يتشاور، فقال الطواشى سنان باشا يونس باشا إننا سمعنا من قال يا سليم ثلاث مرات وقيلت صراحة، فقال السلطان سليم: عندما كنت فى سياحتى بمصر مع حليمى قال أبو السعود الجارحى ومرزوق كفاف بالمكاشفة: ياسليم روح اجلس على تخت أبوك وإذا ما دعوناك إلى مصر فاقدم هذا ماقالاه.

ويقول أوليا جلبى عن بشريات فتح العثمانيين مصر:

«ومضى سليم إلى بورسة لزيارة أمير سلطان فقال السلام عليكم يا أهل القبور،

فسمع صوتا يقول: وعليكم السلام ياصاحب السيف والقلم، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين وتردد هذا الصوت من القبر الشريف، فأخذ العجب مأخذه من جملة الحضور وفى الوقت عينه قال كمال باشا زاده للسلطان سليم، لقد بشرت يامولاي بفتح مصر.

عقد سليم نيته على غزو مصر، فتمنطق بالسيف فى ضريح أمير سلطان وقرأ كمال باشا زاده الفاتحة ومسح وجهه بيده ثم أدى الزيارة، ومضى سليم إلى قصره وهناك جمع جميع علماء الترك، وأهل الفتيا على المذاهب الأربعة، فطلب منهم أن يفتوه فى فتح مصر، وكان البطواش سنان باشا الصدر الأعظم آنئذ، وعرض أربعين فتوى كانت قد جاءت من مصر، وقرأ هذه الفتاوى علماء الترك، وتبينوا ما جاء فيها، وقالوا مادام علماء مصر وكبار أولياء الله فيها أفتوا بوجوب قتال الجراكسة فنحن أولى بهذا القتال.

وبعد ما ذكر أوليا جلبى فى كتابه مضمون الفتوى قال:

فحمل سليم سند الفتوى وفى الحال بعث باثنى عشر رسولا إلى السلطان الغورى فدخل هؤلاء الرسل إلى ديوان السلطان الغورى، فقرأ السلطان الغورى رسالة السلطان سليم وفتاوى رسول الله ﷺ ثم قال: لقد سبق للسلطان سليم أن قتل علاء الدولة بن ذي القدر وسبعين من أبنائه وأرستل إلينا أسرى مكبلين والآن دماؤكم فداء لهم، ولقد أرسلكم إلى بحجة أنكم رسل، وأمر بقتل عشرة منهم وأطلق سراح اثنين، وسلمهم خطاب الأمان، وفيها يقول: مادامت حيا لن أمكنك من دخول مصر وليكن اللقاء فى سهل مرج دابق عند حلب، وإن كنت رجلا تعال إلى ميدانى، وعندما تسلم سليم رسالة الغورى هذه استشاط غضبا، فقال علماء الترك: لم يقتل سفراء الكفرة قط على مر العصور وإذا ما قتل سفراء المسلمين، فقتل الغورى حلال، فانهض يامولانا لساعتك وخف إليه ولاترفع يدك عنه.

وجهز السلطان سليم جيشه وخاض معارك ضارية ونجح فى هزيمة الغورى وضم بلاد الشام. ثم اتجه إلى مصر ودارت بينه وبين الجراكسة حروبا شرسة حتى مكنه الله فى نهايتها من ضم مصر لحوزة العثمانيين.

وأما النقطة الثانية التى وضحها أوليا جلبى ألا وهى الصورة المضيئة للعثمانيين فى

مصر فقد ظهرت منذ استقرار العثمانيين بـها، فبعد أن مكّن الله السلطان سليم من فتح مصر ودانت له، يقول أوليا :

وبإذن من علماء مصـر جميعا أدى صلاة الجمعة هو وكل أعضـاء الديوان فى جامع عمرو بن العاص بمصـر القديمة، واجتمع هناك مائتا ألـف رجل لأن فى ذلك اليوم كان حضور الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كـفافى وبإذنهما الشريف تلى الشيخ أبو العلا الخطبـة باسم سلطان البرين وخاقان البـحرين خادم الحرمين الشريفـينين سليم خان ابن بايزيد أيد الله سلطنته إلى آخر الزمان. وبـإذنهما الشريف سكّت العملة وكتب عليها «صاحب النصر، ضارب النصر غرو النصر فى البر والبحر السلطان سليم خان بن بايزيـد خان عز نصره سـنة ٩٢٢» وبعد ذلك جـمع سليـم ذات يوم الديوان السـلطان وحضره جميع أعضائه على تفاوتهم فى السن والرتبة، ووضع سليم يده فى يد خير بك وأجلسه على سرير الخـلافة ووضع على رأسه العمامة المعروفة بسليـمى وريشة نفيسة، وعلى ظهر خلـعة فاخرة من السمور، وحول خصره مـنطقه مرصعة تعلق فـيها خنجر مرصع وحرص سـليم على أن يلـبسه كل ذلك بنفـسه، ورفع يده بالدعـاء وقال: لقد جعلتك ياخير بك وزيرا ونائبى فى هذه الدولة وسأرى كيف تخدم الإسلام، فأنا لارغبة لى فى شئ من مصر، لقد ظفرت بلقب خادم الحرمين الشريفين وكفى.

ووقف جميع محاصـيل مصر على النبى ﷺ فاشهدوا من الآن فـصاعدا ياخير بك أنت مولى هذا الوقف فأحسن خدمته.

ثم وضع السلطان سلـيم قانونا تسير عليه الإدارة فى مصر كـان من أهم ما جاء فيه التالى :

جعل مائـة من الأغوات بكوات الشراكسـة، وأمر ألا يجتمع الديوان ثـلاثة أيام فى الأسبوع وأيام العـطلة هى الجمعة والسبـت والأربعاء، ويحضر قاضى العـسكر الديوان خمسة أيام، ومن أجل الديوان في كل يوم كيـسان من دنانير. ويقدم ثلاثة آلاف صحن من طـعام، ويطعـم كل أعضاء الـديوان والخدم والآتون مـن بعيد وجـعل سليـم ذلك قانونا، ولشـاويشية الديوان كل يوم خـمسة خراف وأردب من أرز وكيلتـان من العدس

والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأوقيتان من شمع العسل، كما أجرى على الإئمة والمؤذنين راتبا. . ولجميع أقاليم مصر ثمانون كشافا وفى دواوينهم يبسط كل يوم سماط فى الصباح وسماط فى المساء وذلك من المال السلطانى، كما أن بكوات الشراكسة ومائة من رؤساءالفرق بعد سماطهم، يبسطون الموائد للعوام والخواص، وفى كل وقت من أوقات الطعام تقرع الطبول لينبه جميع الجياع. وجعل ذلك قانونا، ودامت هذه النعمة، وما كانت مثل هذه النعمة فى بلاد سلطان آخر، وبعد ذلك لم يصدر قانون سلطانى.

وهكذا يتبين مما سبق نبل وعظمة هدف العثمانيين من دخول مصر فحدده السلطان سليم بأنه لخدمة الإسلام حيث جعل كل خيراتها وقفا لله تعالى.

وشهد الناس فى ظل حكمه عطف ورعاية لامثيل لها حيث نراه يأمر كاشفى الأقاليم بعمل أسمطة صباحا ومساء لإطعاء الناس، ولجدية الأمر يأمر بأن تقرع الطبول لينبه جميع الجياع.

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن مصر شهدت ازدهارا اقتصاديا فى ظل حكم العثمانيين كما يتبين لنا ذلك من الرحلة، وتبين ذلك أيضا من طبيعة النشاط الاقتصادى وكثرة الحرف والدكاكين والوكالات والصناعات.

كما شهد الناس نوعا من الرغد والرفاهية فالمستشفيات تعمل مجانا والمبررات توزع طعامها ليلا ونهارا مجانا، والاحتفالات كثيرة ومتعددة مما يدل على نوع من الراحة والاستقرار وإن كان ذلك فى الفترة التى عاشها أوليا جلبى فى مصر. إلا أنها كشف عن الكثير من إيجابات الحكم العثمانى فى مصر.

تقويم رحلة أوليا جلبى

فى أوليا جلبى كثير من الصفات الجليلة أولها القدرة على تحمل المشاق والصبر عليها، وقد أوردنا جزءا يسيرا فى أمثلة سابقة من هذه المشاق، والرحلة بها غير هذه الأمثلة، عشرات الأمثلة.

ومن صفاته أيضا شجاعته، وإصراره على بلوغ هدفه وثقته بالله وإيمانه الشديد به سبحانه وتعالى:

مثال : أثناء عزمه زيارة فنجستان يقول :

«ولما عقدنا العزم على الرحيل قدم إلينا الشباب والشيوخ وقالوا لنا إذا ذهبتم إلى فونجستان فإن جيادكم سوف تهلك من الحر والجوع، ولاتأمنون عادية اللصوص من الزنوج وبسطوا إلينا الرجاء ألا نمضى فقلت إن الخوف لايدخلنى مطلقا، لأن الله تعالى : (والحافظون لحدود الله)، وقد حفظت منذ أربعين عام، وقد ختمت القرآن الكريم فى كل يوم جمعة منذ فجر شبابى، وبذلك كنت أختمه فى كل عام ثمانية وأربعون مرة. وأنا مقتنع بذلك كل الاقتناع، وأنا لا أنثنى عن عزمى، وقالوا لى وإذا ما ذهبت إلى إبراهيم باشا، وأنت لاتحمل هدية، فأنا لا أرد جوابا، وماذا أصنع بالهدايا التى لملك فونجستان، وفى الموضع الذى يصب فيه النيل عند دمياط ورشيد صليت ركعتى الحاجة، ودعيت الله، ودعيت الله قائلا أن ييسر لى زيارة منابع النيل ومقابر الأولياء هناك، فالحمد لله تقبل دعائى، لقد جئت إلى بلدة صاى وعودتى إلى مصر غير محتملة، اللهم هبنى رفيقا لأرحل، وألححت فى الدعاء، فقالوا لاتنسانا من دعواتك وكلفت أن أقدم إلى حاكم الفونج رسائل المودة.

ومن صفات أوليا جلبى أيضا الواضحة تماما فى رحلته تدينه الشديد، وغلبة الروح الصوفية عليه، ويظهر ذلك فى كثير من فقرات كتابه، وفى تناوله وذكره للأولياء خاصة، والمتصوفة. أيضا يظهر تدينه الشديد من كثرة استشهاده بالآيات القرآنية وأحاديث النبى ﷺ.

ما يؤخذ على أوليا جلبى فى رحلته

يلاحظ القارئ لكتاب أوليا جلبى مبالغته فى سرد بعض المشاهد والأحداث التى يرويها فى مواضع متعددة من كتابه فعلى سبيل المثال، عند وصفه للتمساح، والحكايات التى أوردها عنه ذكر عجيبة من العجائب قائلا :

ومن عجب أن هذا التمساح يخرج إلى الجزيرة مع أنثاه وعند الجماع ترقد الأنثى فوق ظهرها، وبعض البدو ممن أصيبوا بالسيلان وأرادوا البرء منه أو استجابو لنفسهم الأمارة بالسوء يختبئ الواحد منهم فى الرمل، وقبل أن يجامع التمساح أنثاه وهى على ظهرها، يخرج من كمينه، ويطلق صيحة اليأة، فيجفل التمساح الذكر ويطرح نفسه فى النيل، إلا أن أنثاه تظل على ظهرها، لاتحرك ساكنا، فهى لاتستطيع أن تتحرك لأن أطرافها قصيرة، وهى تسبح فى الماء بفمها وذيلها، وحتى يتم الجماع يغطى الملعون الذى يريد الاتصال بأنثى التمساح قدميها الخلفيتين بالرمال ويغمر كذلك ذيلها بالرمل، ثم يشرع فى فعله الشنيع دون خوف ولاحياء.

ويقسم من يفعل هذا أنه وجد لذة عظيمة من ذلك، ويقول إن جماع أنثى التمساح ألذ من جماع الفتاة البكر، وبه حرارة شديدة، ويقول إن الدم الأحمر يسيل من كل جماع بكر، وإذا ما جامع أنثى التمساح أسبوعا بدلا من الزوجة وجد رائحة المسك فى أنفه، ودام شذا هذا المسك أكثر من أسبوع.

ثم يروى حكاية أخرى طويلة عن نفس الموضوع نقلا عن أحد الأشخاص، ثم يقول فى سبب جماع الناس للتماسيح:

وسبب انتشار جماع الناس للتماسيح فى تلك البلاد هو أن أغلب رجالها مصابون بالسيلان لقصر حضورهم، ولكى يبرءوا منه يجامعون التماسيح، وإذا ما جامعوها تحقق لهم الشفاء، من هذا الداء، والبعض ممن لايجامعون التماسيح يجامعون الجوارى الحبشيات السود، وبذلك يشفون، ولهن حرارة شديدة تجذب ما فى جسم الإنسان من منّى وغيره.

ولم تكن هذه هى المرة الواحدة فقط التى يذكر فيها أوليا جلبى ذلك عن التماسيح ولكنه عاد وذكرها فى مواضع أخرى، والحقيقة أن ذلك فيه نوع من المبالغة والاستفاضة فى موضوع ليس ذا أهمية. كما أنه مخالف للفطرة البشرية.

ومن المبالغات التى ذكرها أيضا تحت عنوان . . «لطيفة غريبة»:

«رأيت فى صحراء «هيهات» قوم القالموق أكلة لحوم البشر، إنهم يأكلون لحم موتاهم، وقد خنقوا بعض أسرارهم من النوغاى وأكلوا لحومهم إلا أنهم لم يذبحونهم حتى لاتتسرب دماؤهم فهم يخنقونهم ويطبخونهم ويأكلونهم، ويقولون أن ألذ اللحم لحم البشر والثعابين والخنازير، كما يقولون أن إلية الخنزير وإلية البشر ألذا ما يكون طعما.

وواقع الأمر أن بين الترك من هم على مذهب القالمق، ويعرفون ذلك حق العرفة أما أنا فقد شاهدت ذات مرة أحدا يقبل حسناء فدبت فيه الحياة وشعر بمزيد من السرور فأدرت من ذلك أن لحم البشر لذيذ.

ومن المبالغات والمتناقضات لأوليا جلبى ما ذكره فى الفصل الثامن والخمسين قائلا «إن عدد المصابين بالرمد فى مصر مالا يعلمه إلا الله فى حين أنه لاوجود لكحال ماهر فيها، وجيادها كثيرة فى حين إنه لاوجود فيها لبيطار، ومرضاها كثير فى حين إنه لاوجود لطبيب يعالجهم، وكثير منهم تورمت خصيته حتى تمزقت ولايجد له جراحا، ورجالها كثير فى حين أنه لاوجود لحاكم يحكمهم، وما أكثر قضاتها فى حين أنه لا وجود لمن يقول الحق فيها، وما أكثر شهود الزور فيها، وما أكثر المعاندين فيها فى حين إنه لا وجود لمن يتفوه بكلمة طيبة، وجندها كثرة فى حين أنه ليس لهم ضابط، ويتملقون جندهم، وما أكثر القائمين على جباية الضرائب فى حين أنه لاوجود لمحاسب ذى ضمير، وهذه العبارات أصبحت أمثالا تضرب فى مصر وهى تدور على ألسنة الناس.

والعجيب فى مقولة أوليا جلبى هذه أنها تتناقض بعض الشئ مع ما ذكره قبل ذلك فى رحلته، فبالنسبة للمرضى ذكر أن بها بيمارستانات وأنها تعالج المرضى مجانا، وعن قول الحق قال قيل ذلك أن مصر لايضيع فيها الحق «وأن بمصر إحقاقا للحق ليس له من وجود»، وأن بها جراحين لعملية ختان البنات والصبيان، كما أن كلامه ذلك كلام مطلق فليس من المعقول أنه لايوجد واحد فقط يقول الحق أو واحد فقط يتكلم كلمة طيبة أو محاسب ذى ضمير، رغم أن أوليا جلبى ذكر فى فضائل أهل مصر ومحاسنهم كثيرا من الأخلاق الحميدة، التى أعجب هو بها وذكرها فى كتابه، مثل وقوفهم بجوار بعضهم البعض فى حالات الوفاة، والختان وغيرها من المناسبات الاجتماعية.

خاتمـــة

وخاتمة القول فى ذلك :

١- قدمت إلى المكتبـة العربية شخصية رائدة فى مجال أدب الرحـلات هو أوليا جلبى، للمرة الأولى، ونشر هذا البحث معناه اهتمام الباحثين العرب به.

٢- أوليا جـلبى: عالم ورحـالة وأديب وصحفـى وناقد. هذه نتـيجة خرجت بـها من دراسته. والمتداول عنه إنه مجرد رحالة.

٣- كما أنه رجل إدارى.

٤- أوليا جلـبى، مثل للثقافـة الإسلامية بفروعها الـثلاثة الأساس: العربية والـفارسية والتركية العثمانية.

٥- قدمت هذا البحث ليكون عونا على دراسة رحالة أوليا جلبى فى مصر التى تبلغ فى أصلها التركى ألف صفحة.

٦- الثـقة فى المؤرخ الـعثمانـى الذى قدم لنـا إحصائـيات فاقت مـا قدمه عظـيم أدب الرحلات ابن بطوطة.

٧- دراسة أوليا جـلبى، تؤدى بالضرورة، إلى الـكشف عن عصر التنـوير الإسلام فى مصر فى القرن السابع عشر الميلادى.

والله الموفق

محمـد حـــرب

- ١ -

الحمد لله وحده وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمدًا عبده وحبيبه ورسوله، وبعد..

حمدًا بلا حدّ وثناءً بلا عدّ، على الخلاق الباقى رب العباد، الذى أوجد كل ما فى هذا الوجود، وأتم خلق كل ما فى السموات وما فى الأرض والليل والنهار مخاطبًا إياها بقوله كن: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، إن الله على كل شىء قدير.

خالق بلا نصب إله عظيم، خالق الأرض رب العرش العظيم.

ذلك الصانع المصورً القيوم، اقتضت حكمته الأزلية وحسب علمه أن يأتى بحبيبه المصطفى إلى أديم هذه الأرض، وأن يُزيِّن الأرض ببنى آدم، وكيما يزين الأرض ببنى آدم، خلق من التراب بيد قدرته صفىً البشر آدم، ونفخ فيه الروح من روحه، وجعله الكامل المكمل النبى وجعله حقيقًا بجواره وأدخله جنة المأوى، وألّف بينه وبين جميع الملائكة، ومتّعه بالحور والغلمان فشاهد جمال البارى دونما واسطة وعلّمه كلمات وكان له عند الله حسن القبول، وسجد لآدم جميع الملائكة المقربين ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وعلى حد قول المفسرين إنه سكن أرض الجنة العالية عامًا واحدًا وعاش مع أمنا حواء أطيب العيش وفى نهاية الأمر كان لا يُسئل عما يفعل، وبناء على مشيئة الله الأزلية نهاه بتلك الآية الشريفة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وبعد النص القاطع صدر الأمر القاطع لآدم فما ذاق آدم حبة من قمح سنين عددا، ولكن بما أن العصيان مركوز فى طبع الإنسان نسى ما أمره الله به وبإيعاز من أمنا حواء أكل حبة من قمح، فطرد آدم من مقره إلى الأرض فى جزيرة (سرنديل) من أرض الهند، أما أمنا حواء فاستبعدت إلى جدة، وبناء على قول المفسرين إن آدم وأمنا حواء بعد هبوطهما كانا يسيحان فى الأرض ويتجولان عريانين وعلى رأسهما التاج، وقد بلغ منهما الجوع مبلغه ومست حاجتهما إلى حبة قمح وهما يهيمان على وجهيهما.

- ٢ -

وبعد ذلك أهدت عصافير الجنة شعرة من لحية آدم إلى أمنا حواء، وأتت من شعر غدائر حواء لآدم عدة شعرات كالعنبر، فكانت طيور عصافير الجنة سبب لقائهما فى عرفات، فتم التقاء آدم بحواء فى عرفات، ولذلك سمى الجبل بـ «عرفات» وهو فى اللغة العربية جبل (عرفه)، وباجتماعهما تم لهما الصفاء، ولذلك كان دعاؤهما لعصفور الجنة، فقال العصفور: حيال خدمتى لكما، لى عندكما رجاء، بما أن لحمى غاية فى لذة طعمه، فإن كل الأفاعى والدوييات كثيرة الأرجل أعدائى، فلا أجد الذريّة، لى رجاء أبسطه لديكما هو أن يكون عشى فى داركما حيثما كنتما، يا آدم أعطنى من لحيتك شعرات، وعلى حواء كذلك أن تقدم عدة شعرات تمتزج بالطين وأصنع منها عشًا فى داركما ويسعد عيشى فى ظلكما وتكون لى ذرية، فوقع رجاؤه موقع القبول، فقدم آدم وحواء الشعرات إلى عصفور الجنة فخمرها فى الطين وجعل العصفور عشه بناء صغيرًا فى دار آدم، وبسبب ذلك تعيش طيور عصافير الجنة فى البيوت إلى يومنا هذا، والبيت الذى بناه آدم وحواء فى أسفل جبل عرفات. ويسمون مطبخ آدم البيت الشريف، وهو الآن موضع يُزار، وقد عمَّر هذا البناء نوح ـ عليه السلام ـ بعد الطوفان، وهو مزار للحجيج.

وقد حملت أمنا حواء شتاءً فى عرفة، وقد أورد المؤرخون كثيرًا من الروايات الأخرى، بينما كان آدم فى عالم التجرد احتلم فى منامه، فوقع منيّه على الأرض، وبعد عام ظهر منه (شيث) وأصبح مثل آدم مخلوق من التراب.

وفى قول أن وسط آدم انقبض فسقط منيّه على الأرض فخلق الله عشبًا وانتشر هذا العشب فى البنغال وايرجيش ودماوندو جبل الرهبان فى بروسة وجبل البرز، إنه عشب من الجن منهم رجال ونساء وله شعر ولحية وهما من غريب خلق الخالق، وفى لسان العرب (يبروح الصنم وعبد السلام)، وبعض الأطباء يجعلون هذا العشب فى المعاجين لتكون أدوية، إنه عشب مقو إلى حد بعيد.

ولما هبط آدم إلى الأرض نبت هذا العشب من منيّه، وإن قيل إنه ليس (شيث)، والقول الأرجح أنه هو، لأن شيث من آدم وحواء كما أن (شيث) لم يشترك مع بنت فى الرحم لأن آدم قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، باسطًا الرجاء إلى البارى تعالى، طالبًا لشيث حورية، وسرعان ما جاء جبريل الأمين بحورية لآدم، وقدمت زوجة (لشيث)، وفى ذلك العصر كان عقد النكاح كلمة (لا إله إلا الله آدم صفى الله)، ثم مضى (شيث) مع أنيسته إلى أرض حوران بالشام.

- ٣ -

وهناك مكث مدة من الزمن وهذه الحورية يخطئون فى تسميتها حوران، وهذا ما سلف ذكره فى مجلد سابق، وكان مقرهما الأول سرنديب والمقر الثانى جبل عرفات، أما مقرهما الثالث فمكة التى بلغاها بإذن من الله تعالى ـ واستوطناها.

ومن أجل ألفة وأنس آدم أنزل الله ـ تعالى ـ قصرًا من جنة المأوى إلى مكة واسم هذا القصر البيت المعمور، وفى رواية أنه كان من الياقوت الأحمر، وفى أخرى أنه كان من اللؤلؤ الأبيض، وبعد الطوفان بينما كان الله يرفعه إلى الجنة، انفصل عنه الحجر الأسود، وقيل إنه اسوّد من ماء الطوفان، وقيل فى إحدى الروايات، أنه اسودَّ من مسح العُصَاة وجوههم عليه، ثم فرض رب العزة على آدم أن يطوف بالبيت المعمور هذا، وقد عَلَّمَ جبريل الأمين آدم العبادة فيه ودام على تلك الحال طويلاً وهو يسكن مكة.

ويذهب المؤرخون إلى أن آدم كان له أربعون ألفًا من الولد وكان يطوّف فى كل عام أبنائه حول البيت المعمور ويجعلهم يؤدون مناسك الحج، ولكن تأذت نفسه كثيرًا لأن مكة أرض غير ذات زرع، فمضى إلى أرض مصر مؤتمرًا بأمر الحق ـ تعالى ـ واستوطن شاطئ النيل، فمصر هى وطنه الرابع فاشتغل بالزراعة وتحصلت له وفرة من الغلال بحيث كان من كل حبة قمح مائة سنبلة وفى كل سنبلة مائة حبة. وفى البداية دعى آدم مع كل أبنائه لمصر، ودعا لهم بلسان عبرى إذ إن آدم حين هبوطه من الجنة نسى لغته العربية التى كان يتحدث بها فى الجنة بسبب عصيانه، فعلمه جبريل الأمين كلمات

عبرية، أما دعاؤه لمصر والذى أخذته عن التواريخ القبطية فسوف نكتبه فى مجموعتنا تلك.

دعاء سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ صفى الله فى حق مصر باللغة العبرية:

اللهم احفظ إيماني من الشيطان ونجنى، نجنى ولتكن جميع الملائكة فى خدمتى، واعطنى القمح لأصنع الخبز. اللهم اجعل هذا البلد عامراً لأبنائى بعد مماتى.

قال سيدنا آدم هذا الدعاء في حق مصر بلسان عبرى على وزن مفتعلن مفتعلن، ولقد أصبحت جميع الديار معمورة أبدًا منذ ذلك اليوم وحتى الآن. والمدينة الواحدة نصف الدنيا، وأصبحت مصر معمورة منذ أول الخلق وسوف نبين ولاة مصر وملوكها منذ هبوط آدم وكيفية حكمهم وتصريفهم لأمورها حتى يومنا هذا ومدة حكمهم وأعمارهم.

* * *

ذكر أوصاف أقدم البلاد وأعظم المدن

مصر المحروسة

نادرة الزمان أم الدنيا: القاهرة المعزيّة،

حفظها الله من الآفات السماوية والأرضية

دخلت أنا أوليا الحقير سياح العالم، ونديم آدم، مصر فى السابع من صفر عام ثلاثة وثمانين وألف فوجدت داخلها وخارجها ما عجبت له كل العجب، ذلك أن ما فيها من عجائب وغرائب الأبنية ليس له من وجود فى ديار سواها، وبينما كنت أبحث عمن أقام تلك الأبنية ذات الطلاسم وتلك القصور العالية رجعت إلى ما لا يحده الحصر من التواريخ القيمة وهذا بيان بعناوينها:

- أسماء تواريخ مصر وغيرها من الكتب النادرة:

أولاً: تاريخ المقريزى: وهو كتاب عظيم القيمة مشهود له بصحته التاريخية وهو مستمد من كتب قبطية وسريانية ودهلوية ومغولية ولاتينية ويونانية تلقاه الخاص والعام بقبول حسن.

وتاريخ ابن جرير الطبرى، صاحب التفسير القديم: وهو تاريخ نفيس.

تاريخ الشيخ الإمام السيوطى: وهو تاريخ له ما له من عظيم قيمته.

وتاريخ صابية وكتاب فتوحات مصر لابن عبد الحليم.

وكتاب فضائل مصر لابن عبد الكندى.

وكتاب ابن زولاق.

وكتاب خطط القضاع.

وكتاب إيقاض المتفضل وهو مختصر للشيخ نصر الدين الكرمانى.

وكتاب مباهج الفكر ومناهج العبر.

وكتاب عوان عنوان السير محمد بن عبد الملك الهمدانى.

وتاريخ الصحابة.

وتاريخ التجريد فى الصحابة للذهبى.

وكتاب المختصر للشيخ نصر الدين الكرمانى.

وكتاب الإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر.

وكتاب الرجال العشرة للحسينى.

وكتاب طبقات الحفاظ للذهبى، وكتاب طبقات الشافعية لابن السبكى، وكتاب طبقات المالكية لابن ترخون[1]، وكتاب طبقات الحنفية لابن دقماق، وكتاب مرآة الزمان لابن الجوزى، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير، وكتاب إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر، وكتاب الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد لكمال الإدفوى، وكتاب السكردان لابن حجلة، وكتاب سجع النهر نيل فى أوصاف نهر النيل، وكتاب ثمار الأوراق لابن حجة، وتواريخ الشهاب جلبى ترجمة لكتاب «حسن المحاضرة» للشيخ السيوطى، وعلاوة على تلك الكتب السالف ذكرها، قرأت كثرة من الكتب والدواوين فى مصر وأدرجت فى رحلتى هذه ما تنبغى معرفته من قواطع الأدلة وأوصاف الرواة والحوادث، وقسمت تاريخ مصر منذ هبوط آدم إلى يومنا هذا، وتجرأت على كتابة هذا «وبه نستعين وبالله التوفيق».

* * *

(١) فى الأصل: ،